﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَىٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾

[الشمس: 11 - 15]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

العاقلُ يعتبرُ بالأمثال

لمّا ذكر تعالى خَيبةَ مَن دسَّى نفسَهُ، ذَكرَ فِرقةً فعَلَتْ ذلك؛ وهُم قومُ ثمودَ الذين انبعثَ أشقاهُمْ لعَقرِ النّاقة، ولم يَستجيبوا لتحذيرِ رسولِهم، وذَكرَ العقابَ الذي وقعَ عليهِم بقوله: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾؛ ليعتبرَ بها كفّارُ مكّة، ويَنتهوا عن مِثل فعلهم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ثَمُودُ﴾: (ثمد) أصلٌ يدلُّ على القليل من الشَّيء[2]، ومن ذلك: الثَّمْد، وهو الماءُ القليلُ الَّذي لا مادَّة له[3]، وفلانٌ مثمودٌ، إذا كثُرَ السُّؤال عليه حتَّى يَنفدَ ما عنده، وماءٌ مثمود، إذا كثُرَ عليه النّاسُ حتَّى يُنفِدوه إلّا أقلَّه[4]، و(ثمود) قيل: هو أعجميٌّ، وقيل: هو عربيٌّ، وتُرِكَ صَرفُه؛ لكونهِ اسمَ قبيلةٍ أو أرضٍ، ومَن صَرَفَهُ جَعَلَهُ اسمَ حيٍّ أو أبٍ؛ لأنَّه يُذكَّر، وهو فعول من الثَّمْد، وهو الماءُ القليل[5].

2) ﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾: (طغي) أصلٌ يدلُّ على مجاوزةِ الحدِّ في العصيان[6]، ومن ذلك يُقال: هو طاغٍ، لكلِّ مَن جاوزَ حدَّه[7]، كما

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 488، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 489، والبقاعي، نظم الدرر: 22/ 80.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثمد).
(3) الخليل، العين: (ثمد).
(4) الجوهري، الصحاح: (ثمد).
(5) الراغب، المفردات: (ثمد).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طغي).
(7) الرازي، مختار الصحاح: (طغي).

طغا الماءُ على قوم نوح، وكما طغَت الصَّيحةُ على ثمود، والرّيحُ على قوم عادٍ[1]، وقال تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٢٤﴾ [طه: 24]، وقال: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦﴾ [العلق: 6]، ويُقال: أطغاهُ كذا، أي: حمَلهُ على الطُّغيان[2]، ويقال: طغَى السَّيل، إذا جاء بماءٍ كثير، وطغَى البحر: هاجَت أمواجُه، والطَّغْوَى مِثل الطُّغيان[3]، أي: مجاوزةُ الحدِّ. وهو المُراد هنا على الأظهر[4].

3) ﴿ٱنۢبَعَثَ﴾: (بعث) أصلٌ يدلُّ على الإثارةِ للشَّيءِ[5]، بحيثُ يندفعُ ناهضًا أو مُبتعدًا[6]، يقالُ: بَعَثْتُهُ فانبعثَ، ويختلفُ البَعْثُ بحسَبِ اختلافِ ما عُلِّقَ به، فبعثتُ البعيرَ: أثَرْتُهُ وسيَّرتُهُ، وقولُهُ ﷻ: ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 36] معناهُ: يُقيمُهم للحَشْرِ[7]، ويومُ البَعْثِ: يومُ القيامةِ[8]، وقولُهُ ﷻ: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [المائدة: 31]، أي: قيَّضَهُ ويسَّرَهُ، وقولُهُ: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ﴾ [التوبة: 46]، أي: ذهابَهم ومُضيَّهم[9]، وقولُهُ: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ﴾ [الكهف: 12]، أي: أيقظْناهم؛ سُمّيَ إيقاظُهم بَعْثًا؛ تشبيهًا للنَّوم بالموتِ، وقولُهُ: ﴿فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ [النساء: 35]، أي: أرْسِلوا[10]. والمراد بالانبعاث هنا: النُّهوض والقيام للأمر[11].

4) ﴿أَشۡقَىٰهَا﴾: (شقي) أصلٌ يدلُّ على المُعاناةِ وخلافِ السُّهولةِ والسَّعادةِ[12]، وكما أنَّ السَّعادةَ نوعانِ: أُخرويَّةٌ، ودُنيويَّةٌ، كذلكَ الشَّقاوةُ، وإلى الشَّقاوةِ الدُّنيويَّةِ أشارَ سبحانَهُ بقولِهِ: ﴿فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧﴾ [طه: 117]، وإلى الشَّقاوةِ الأُخرويَّةِ أشارَ بقولِهِ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣﴾ [طه: 123][13]. ومعنى قولِهِ تعالى: ﴿وَلَمۡ أَكُنۢ

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (طغي).
(2) الراغب، المفردات: (طغي).
(3) الرازي، مختار الصحاح: (طغي).
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 78، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 547.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بعث).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بعث).
(7) الراغب، المفردات: (بعث).
(8) الخليل، العين: (بعث).
(9) الراغب، المفردات: (بعث).
(10) السمين، عمدة الحفاظ: (بعث).
(11) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 548.
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شقي).
(13) الراغب، المفردات: (شقي).

﴿بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤﴾ [مريم: 4]: لم تُشْقِني بالرَّدِّ مِنْ غيرِ إجابةٍ، ويقالُ لَمَنْ أدركَ أمرًا سعَى فيهِ: قد سَعِدَ بهِ، ولَمَنْ فاتَهُ: قد شَقِيَ بهِ[1]. والمرادُ بأشقاها هنا: قُدار بن سالف[2].

5) ﴿وَسُقْيَاهَا﴾: (سقي) أصلٌ يدلُّ على تحصيلِ الماءِ ونحوِهِ مِنَ المائعِ في الجوفِ بإنفاذِهِ إليهِ[3]، تقولُ: سَقَيْتُهُ أسْقيهِ سَقْيًا، وأسقَيْتُهُ، إذا جعلتَ لهُ سُقْيا[4]، قالَ تعالى في السَّقْي: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١﴾ [الإنسان: 21]، وقالَ في الإسقاءِ: ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ۝٢٧﴾ [المرسلات: 27]، وقالَ: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون: 21]، وقيلَ: السَّقْيُ والإسقاءُ بمعنًى، والاستسقاءُ: طلبُ السَّقْيِ أو الإسقاءِ، قالَ تعالى: ﴿*وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ﴾ [البقرة: 60][5]، والسِّقايةُ: الموضعُ يُتَّخذُ فيهِ الشَّرابُ في المواسمِ وغيرِها[6]. والمرادُ بالسُّقيا هنا: الشّربُ من الماء[7].

6) ﴿فَعَقَرُوهَا﴾: (عقر) أصلٌ يدلُّ على جرحٍ في الشَّيءِ[8]، ومن ذلك يقال: عقرَه، أي: جرحَهُ[9]، وعقرتُ النَّخلَ: قطعتهُ من أصلِه[10]، وعقرتُ الفرسَ، أي: كسعتَ قوائمَه بالسَّيف، وفرسٌ عقيرٌ ومعقور[11]، وعقرَ النّاقةَ يَعقِرُها ويَعقُرُها عَقْرًا، وعقرَها: إذا قطعَ قوائمَها، حتَّى تسقط فينحرَها مستمكِنًا بها[12]، قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: 65]، ويقال: عاقرَ صاحبَه: فاضلَه في عَقْرِ الإبل، كما يُقال: كارَمَهُ وفاخَرَهُ، وتعاقرَ الرَّجلان: عقرا إبلَهما، ليُرى أيُّهما أعقرُ لها[13].

7) ﴿فَدَمْدَمَ﴾: (دمم) أصلٌ يدلُّ على غشيانِ الشَّيء من ناحيةِ أن يُطلَى به[14]، تقول:

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (شقي)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 65.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 78.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سقي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سقي).
(5) الراغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ: (سقي).
(6) الخليل، العين: (سقي).
(7) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 78، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 548.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقر).
(9) الجوهري، الصحاح: (عقر).
(10) الراغب، المفردات: (عقر).
(11) الخليل، العين: (عقر).
(12) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (عقر).
(13) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (عقر).
(14) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دمم).

دمَمْتُ الثَّوبَ، إذا طليتَه، أي: صبغته، والمَدمومُ: الأحمر، والمَدمومُ: المُمتلئُ شحمًا من البعير وغيره[1]، والدُّمُّ: القُدورُ المطليَّة[2]، ويقال: دَمدَمَ فلانٌ على فلان، أي: تكلَّم وهو مُغضَب، أو كلَّمَه بكلام أزعجَهُ وحرَّك قلبَه[3]، والدَّمدَمَةُ: الإهلاكُ والإزعاج، وهو المُرادُ هنا[4].

8) ﴿عُقْبَهَا﴾: (عقب) أصلٌ يدلُّ على تأخيرِ شيءٍ وإتيانِه بعدَ غيرِه، والآخرُ يدلُّ على ارتفاعٍ وشدَّةٍ وصعوبة[5]، ومن ذلك يقالُ: جاءَ في عَقِبِ الشَّهرِ، أي: آخِرِه، وعقَّبَهُ، إذا تلاهُ[6]، وتعقَّبتُ ما صنعَ فلانٌ، أي: تتبَّعتُهُ[7]، والعُقْبُ والعُقْبَى يختصّانِ بالثَّوابِ، قالَ تعالى: ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ [الكهف: 44]، وقالَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد: 22]، وإطلاقُ العاقبةِ يختصُّ بالثَّوابِ، نحوُ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف: 128]، وبالإضافةِ قد تُستعمَلُ في العقوبةِ، نحوُ: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الروم: 10][8]. والمراد بالعُقبى هنا: التَّبِعة[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

جزاءُ مَن حاربَ اللـه ورسـولَـهُ سوءُ العاقبة

في هذهِ الآياتِ ذِكرٌ لأُنموذَجٍ ممّا حَلَّ بالمُكَذِّبينَ مِنَ الأُممِ السّابقة، وهُم قومُ ثمود. قال ﷺ: كَذَّبَت ثمودُ بالحقِّ بسَببِ تَجاوُزِها الحَدَّ في المعاصي، أو بعَذابِها الذي هَدَّدَهُم به صالحٌ عليه السلام. وكانَ التَّكذيبُ أو الطُّغيانُ حين نَهَضَ وقامَ أشقَى ثَمودَ، وهو قُدارُ بنُ

(1) الجوهري، الصحاح: (دمم).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (دمم).
(3) ابن الأنباري، الزاهر في معاني كلمات الناس: 1/ 189.
(4) الراغب، المفردات: (دمم)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 79.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(6) الراغب، المفردات: (عقب).
(7) الزمخشري، أساس البلاغة: (عقب).
(8) الراغب، المفردات: (عقب).
(9) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 79.

سالِف، فقالَ لهم صالحٌ ﷺ: احذَروا ناقةَ اللّه وسُقْياها، فلا تَعتدوا على يَوم شِربِها الذي جَعلهُ اللّه لها، فيَحِلَّ عليكم العذاب. لكنَّهُم كذَّبوا صالحًا فيما أخبرَهُم به، ونَحَروا النّاقةَ، فأهلكَهُم اللّه إهلاكًا شديدًا بسَبب ذُنوبِهم، وشَملَهُم بالعُقوبة، فلم يُفلِتْ منهم أحد؛ لأنَّهُم رَضوا عن فِعلِ صاحِبِهم، ولا يَخافُ سبحانه تَبِعةَ إهلاكِهم؛ فهو القاهِرُ الذي لا يُغالَب، ولا يُرَدُّ عذابُه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصلِ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ عمّا قبله:

ثمودُ مِثالٌ لكلِّ مَن دَسَّى نفسَهُ

فُصِلَتْ هذه الآيةُ عمّا قبلها لأنَّها استئنافٌ واردٌ لتقريرِ مَضمونِ جُملةِ ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، أي: خابَ كخَيبةِ ثمود[2]، على أنَّ جملة ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ جوابُ القسَم؛ فجملة ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾، تقريرٌ لمضمونِ ما سبَق.

وإن كانت جملةُ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ الآية، معترضة؛ كانت جملةُ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ جوابًا للقسَم باعتبارِ ما فُرِّعَ عليها بقوله: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾، أي: حقًّا لقد كانَ ذلك لذلك، ولامُ الجوابِ محذوفٌ تخفيفًا لاستطالةِ القسَم.

فائدةُ الاستئنافِ بجُملة ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾:

الاستئنافُ بجُملةِ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ الغَرَضُ منهُ التَّعريضُ بتَهديدِ المُشركينَ الَّذينَ كذَّبوا رسولَنا ﷺ طُغيانًا، وهم يَعلَمونَ ذلكَ مِن أنفُسِهم، كما كذَّبَتْ ثَمودُ رسولَهم طُغيانًا، وذلكَ هو المُحتاجُ إلى التَّأكيدِ بالقَسَم؛ لأنَّ المُشركينَ لم يَعقِلوا أنَّ ما حَلَّ بثَمودَ من الاستِئصالِ كان لأجلِ تَكذيبِهم رسولَ اللّه إليهم، فنَبَّهَهُمُ اللّه بهذا

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 24/ 458 - 461.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 15/ 361، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 370 - 372.

ليَتَدَبَّروا، أو لِتَنزيلِ علمِ مَن عَلِمَ ذلكَ منهم منزلةَ الإنكارِ؛ لِعَدمِ جَريِ أمرِهم على موجبِ العِلم، فكأنَّهُ قيلَ: أُقسِمُ لَيُصيبَنَّكم عذابٌ كما أصابَ ثَمودَ، ولقد أصابَ المُشركينَ عذابُ السَّيفِ بأيدي الَّذينَ عادَوْهُم وآذَوْهُم وأخرَجوهُم، وذلكَ أقسى عليهم وأنكَى.[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالتكذيبِ مادَّةً وصيغةً:

تكذيبُ ثمودَ لصالحٍ عليه السلام مُتحقِّقٌ وأثرُهُ ضعيفٌ أمامَ عِقاب الله لهم

عُبِّرَ بالتَّكذيبِ في قوله: ﴿كَذَّبَتْ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ ثمودَ لم يُصدِّقوا رَسولَهُم صالحًا عليه السلام فيما أنذَرَهُم بهِ منَ العَذاب، ولم يَعتبروا من تَحذيرِهِ لهُم بحُلولِ العذاب عليهم إذا اعتدَوا على النّاقة.

وجيءَ بصيغةِ الماضي المضعَّف ﴿كَذَّبَتْ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ التَّكذيبِ وحُصولِه، ولذلكَ استحَقّوا الإهلاكَ والتَّدمير، وفي ذلك مزيدُ تأكيدٍ لمحلِّ العِظَةِ والعِبْرةِ للمُشركينَ المُكذِّبين للنَّبيِّ ﷺ.

وَدَلَّ تأنيثُ الفعلِ على ضَعفِ أثرِ تكذيبِهم لرسولهم صالحٍ عليه السلام، وأنَّ هذا التَّكذيبَ لِكُلِّ ما أتى بهِ الرَّسولُ عن اللّه بسببِ ما كانَ من طُغيانِهم، ومُجاوزَةِ القَدْرِ، والغُلوِّ في الكُفرِ لا قيمةَ لهُ أمامَ عَذابِ اللّه لهم؛ لِوُضوحِ آيةِ النّاقةِ، وقبيحِ غايتِهم[2] في التَّعامُلِ معها.

سرُّ تخصيصِ ثمودَ بالذِّكرِ دونَ بقيَّةِ الأقوامِ المُكذِّبة:

أخبارُ ثمودَ معروفةٌ مشهورةٌ عند قريشٍ وسائرِ العرب

تخصيصُ ثمودَ بالذِّكر في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ مع أنَّ هناك مكذِّبين غيرَهم؛ لأنَّ آيَتَهُم - كانت أوضحَ الآياتِ في نفسها - ولأنَّ قريشًا وسائرَ العربِ يَعرفونَهُم؛ لِما يرَونَ من آثارِهم، ويَتناقلونَ من أخبارِهم[3].

ولأنَّ آيةَ النّاقةِ قد أوجبَتْ لثمودَ البصيرةَ، فآثروا الضَّلالة والكُفرَ عن علمٍ ويقينٍ، فذُكِرَت قِصَّتُهُم في هذهِ السّورةِ؛ لأنَّهُ ذُكِرَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 372.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 80.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 80.

فيها انقِسامُ النُّفوسِ إلى الزَّكيَّةِ الرّاشِدةِ المُهتَدية، وإلى الفاجِرَةِ الضّالَّةِ الغاوية، وذُكِرَ فيها الأصلانِ: القَدَرُ والشَّرعُ، فقيل: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾، فهذا قَدَرُهُ وقضاؤُهُ، ثم قيل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، فهذا أمرُهُ ودينُه. وثمودُ هداهُم الله، فاستحبّوا العمَى على الهُدى، فذُكِرَت قصَّتُهم؛ لتبيينِ سوءِ عاقبةِ مَن آثرَ الفُجورَ على التَّقوى، والتَّدسيَةَ على التَّزكية[1].

دلالةُ الباء في ﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾:

فعلُ ثمودَ التَّكذيبَ؛ بطُغيانها

في الباء في قوله ﷻ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ ثلاثةُ أوجُه: أحدُها: أنَّها للاستعانةِ مجازًا، كقولك: كتبتُ بالقلم[2]، والمعنى: فعَلَتِ التَّكذيبَ بطُغيانِها، كقولك: ظَلَمَني بجُرأتِهِ على الله تعالى.

الثّاني: أنَّها للتَّعدية، أي: كذَّبت بما أوعِدَت به من عَذابِها الشَّديد؛ كقوله: ﴿فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥﴾ [الحاقة: 5]، وهذا المعنى ليسَ بعيدًا؛ لأنَّ الطُّغيانَ مجاوزَةُ الحدِّ؛ فسمَّى عذابَهُم طَغْوًا؛ لأنَّه كالصَّيحةِ في مُجاوَزةِ القَدْرِ المُعتاد.

والثّالث: أنَّها للسَّببيَّة، أي: كذَّبت بسبب طُغيانها[3]، وهو خروجُها عن الحدِّ في العصيان[4].

غرضُ حذفِ مفعول ﴿كَذَّبَتْ﴾:

تكذيبُ ثمودَ بالعذابِ أو الوَعدِ به بسبب الطُّغيان

حُذف مفعول ﴿كَذَّبَتْ﴾ ويقدر بناءً على معنى الباء؛ فإذا كانت الباء سببيَّةً فالمكذَّبُ به محذوفٌ، والتَّقدير: كذَّبت ثمودُ صالحًا عليه السلام بسبب طُغيانها، أو كذَّبت ما أوعِدَت به من العذاب بسبب طُغيانها، وكلا التَّقديرَين يدلُّ عليه السّياق اللّاحِق. وأمّا إذا كانت للتَّعدية

(1) ابن القيم، مفتاح دار السعادة: 1/ 92.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 760.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 316، والسّمين، الدر المصون: 11/ 22 - 23.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 78، وابن عادل الدمشقي، اللباب في علوم الكتاب: 20/ 268.

فهي صلة ﴿كَذَّبَتْ﴾، والمعنى: كذَّبت بما أوعِدت به من عذابها[1].
وكذلك يكون المفعول محذوفًا إذا كانت الباء للاستعانة مجازًا.

دلالةُ التَّعبير بقوله: ﴿ثَمُودُ﴾:

ما حلَّ بثمودَ من العذابِ قطعَ وجودَهُم على الأرض

عبَّر القرآنُ الكريمُ عن قومِ صالح بلفظ ﴿ثَمُودُ﴾ في قوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾، وهو اسمُ قبيلةٍ أو الأرضِ الَّتي يسكُنونَها، ويُطلقُ على قطعِ مادَّةِ ماءِ الرَّجُل، وفقدِ مادَّةِ مالِه إذا كثُرَ عليه السُّؤال؛ فاللَّفظ يَحملُ مادَّةَ القَطعِ، وهذا مُناسِبٌ لِما حَلَّ بهم من العَذاب؛ إذ قُطِعَ وُجودُهُم على الأرض. ولم يُعبَّر بـ (قومِ صالحٍ) أيضًا؛ لأنَّهُم قُطِعَت صِلَتُهُم بصالحٍ عليه السلام، فلم تَعُد بينهُم عَلاقةٌ لكي يُلقَّبوا بقومِهِ إلّا مَجازًا باعتبارِ ما كان.

براعةُ التَّعبير بالطَّغوى:

مجاوزةُ ثمودَ الحَدَّ في المعاصي والكفر

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالطَّغوى في قوله ﷻ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ لِما يَحملُهُ هذا الوَصفُ من تصويرِ حُلولِ العَذابِ بهم؛ فيَصِحُّ أن يُقالَ إنَّها فعَلتِ التَّكذيبَ بطُغيانِها، والمُرادُ أنَّ طُغيانَهُم حَمَلَهُم على التَّكذيبِ به. ويَجوزُ أن يَكونَ اسمًا لِعذابِهِمُ الَّذي أُهلِكوا بهِ؛ أي: لم يُصَدِّقوا رَسولَهُم فيما أنذرَهُم بهِ من العَذاب، وبذلك سُمِّيَ ما أُهلِكوا بهِ من العَذاب. (طغوى)[2].

وفيه تعريضٌ بتنظيرِ مُشركي قُريشٍ في تكذيبِهِم بثمودَ، في أنَّ سببَ تكذيبِهِم هو الطُّغيانُ، والتَّكبُّرُ عن اتِّباعِ مَن لا يَرَونَ له فضلًا عليهم، كما أخبرَ اللّٰه تعالى عنهُمْ بقوله: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: 31][3].

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 297.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/ 198.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 372 - 373.

سرُّ التَّعبير بـ ﴿بِطَغۡوَىٰهَآ﴾ دون (بطغيانها):

بلوغُ ثمودَ النِّهايةَ في تكذيبِهم

أوثِرَتِ الطَّغوى دون الطُّغيان؛ لأنَّ الطَّغوى أشبَهُ برؤوسِ الآيات[1]، ولأنَّ الواوَ في الطَّغوى قويَّة، فأفهَمَ هذا اللَّفظُ أنَّهم بَلَغوا النِّهايةَ في تكذيبِهم، فكانوا على الغايةِ من سوءِ تعذيبِهم[2]. ولأنَّ (طغواها) أصلُها: طُغيَها، وفَعَلَ إذا كانت من ذواتِ الياءِ أُبدِلتْ في الاسمِ واوًا ليُفصَلَ بين الاسم والصفة[3].

نكتةُ الإضافة في ﴿بِطَغۡوَىٰهَآ﴾:

الإضافةُ في قولِه ﷻ: ﴿بِطَغۡوَىٰهَآ﴾ تدلُّ على أنَّ سببَ هلاكِهم هو طُغيانُهُم لا طغيانُ غيرِهم؛ إذْ لا تزرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى، أو بأنَّهم كذَّبوا بعذابِهم المَوعودِ لا بعذاب غيرِهم؛ إذْ ما يَعنيهِم هو عَذابُهُم.

دلالة الظَّرفيَّة ﴿إِذِ﴾ في ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ﴾:

انبعاثُ أشقَى ثمودَ أظهَرَ شدَّةَ عُتوِّهِم وكُفرِهم

﴿إِذِ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ ظرفٌ للزَّمنِ الماضي يتعلَّق بـ (طغواها)؛ أي طغَتْ حين انبعثَ أشقاها للعَقر؛ لأنَّ وقتَ انبعاثِ أشقاها لعَقرِ النّاقة هو الوقتُ الَّذي بدَتْ فيه شدَّةُ طَغواها، فبَعَثوا أشقاهُم لعَقر النّاقةِ الَّتي جُعِلَتْ لهُم آيةً، وذلك مُنتهَى الجُرأة[4]. ويحتملُ أن يكونَ متعلِّقًا بـ ﴿كَذَّبَتۡ﴾[5]؛ أي: كذَّبوا نبيَّهُم حين انبعثَ أشقاهُم لعَقرِ النّاقة، وهو علامةٌ من علاماتِ تكذيبِهم.

سرُّ تقديم الظَّرفِ في قوله: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ﴾ عن موقعه:

انبعاثُ الأشقَى بإغراءٍ من قومِه له

قُدِّمَ الظَّرفُ ﴿إِذِ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ عن موقعِه بعد قوله: ﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَىٰهَا﴾؛ لأنَّ انبِعاثَ أشقاها لِعقرِ الناقةِ جُزئيٌّ مِن جُزئيّاتِ طغواهم، فهو أشدُّ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 178.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 81.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 16/ 465.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 373.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 316، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 649.

تعَلُّقًا بالتَّكذيبِ المسبَّبِ عنِ الطّغوى، ففي تقديمِه قضاءٌ لِحقِّ هذا الاتِّصالِ، ولإفادة أنَّ انبعاثَ أشقاهُم لِعقرِ النّاقةِ كان عن إغراءٍ منهُم إيّاه، ولا يَفوتُ مع ذلك أنَّه وقعَ بعد أن قالَ لهم رسولُ اللّه: ناقةَ اللّه وسُقياها[1]، وهذا المعنى ظاهرٌ إذا كانَ الظَّرفُ ﴿إِذِ﴾ متعلِّقًا بـ(طغواها).

بلاغةُ التَّعبير بالانبعاثِ مادَّةً وصيغةً:

شـــدَّةُ حِـــرصِ ثمودَ على عَقرِ النّاقة

عُبِّر بالانبعاثِ في قوله ﷻ: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾؛ للدَّلالةِ على خُروجِ أشقاهُم إلى عَقرِ النّاقة بنشاطٍ وحرصٍ[2]، وأنَّه قد جدَّ في هذا الأمرِ القبيح[3]. وفي ذلك ما لا يَخفى من تفظيعِ شأنِ ثمود؛ إذ كانوا حريصينَ على مَحوِ كلِّ أثرٍ للحقِّ والهُدى، ومن ذلك أبلغُ آيةٍ لهُم، وهي النّاقة.

وجاء بصيغة الماضي؛ للتَّنبيهِ على تحقُّقِ انبعاثِ أشقاهُم وحُصولِه، وفي ذلكَ مزيدُ تقبيحٍ لحالهِ وحالِهم، ولأنَّ العادة جاريةٌ بحكايةِ أفعالِ القصصِ السّالفةِ بصيغةِ الماضي.

نُكتةُ صيغةِ الانفعالِ في ﴿ٱنۢبَعَثَ﴾:

عَـقـرُ الأشـقَـى لـلـنّـاقـةِ كـان بطلبٍ من قومه

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بصيغةِ ﴿ٱنۢبَعَثَ﴾ في قولهِ جلَّ من قائل: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ مُطاوعَ (بعث)؛ لأنَّ الانبعاثَ هو الإسراعُ في الطّاعةِ للباعث، يُقالُ: بعثتُ فلانًا على الأمر فانبعَثَ لهُ أي: نهضَ وأسرَعَ، والمعنى: أنَّه كذَّبت ثمودُ بسببِ طُغيانِهم حين انبَعَثَ أشقاها، وهو عاقرُ النّاقة[4]، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ نهوضَهُ لعَقرِ النّاقةِ كان بطلَبٍ منهم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 373.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 488، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 490.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 298.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 179، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 373.

بلاغةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿أَشۡقَىٰهَا﴾ دون (أشقوها):

مُباشِرو عَقرِ النّاقةِ أشقَى قومِهم

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بلفظِ الأشقَى في قوله: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ دون (أشْقوها)؛ لتعَدُّدِ المُراد به، فيحتملُ أن يكون المقصودَ شخصٌ معيَّنٌ، واسمُه قُدار بن سالف، ووجهُ التَّفضيل: أنَّه أشقَى قومِه وأشقَى الأوَّلين؛ لمُباشَرَتِه عَقرَ النّاقة، ويُضرَبُ به المَثَلُ، فيُقال: أشأمُ من قُدار.

ويحتملُ أن يكونَ المُرادُ به جماعةً، وإنَّما جاء على لفظِ الوحدان؛ للتَّسويةِ في أفعل التَّفضيل إذا أُضيفَ بين الواحدِ والجمع، والمذكَّرِ والمؤنَّث، تقول: هذان أفضلُ النّاس، وهؤلاءِ أفضلُهم، وهذا يتأكَّد بقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾، وكان يجوزُ أن يُقال: أشقَوها؛ كما يُقال: أفاضلُهم[1]، أو يُقال: أفعلُ التَّفضيل إذا أُضيفَ إلى معرفةٍ جازَ إفرادُه وإنْ عُنيَ به جمعٌ[2]. وفضلُ شَقاوتهم على مَن عَداهُم؛ لمُباشَرَتهم العَقرَ مع اشتراكِ الكلِّ في الرِّضا به[3].

دلالةُ الإضافة في ﴿أَشۡقَىٰهَا﴾:

الإعلامُ بسوءِ حالِ عاقرِ النّاقة

تدلُّ الإضافةُ في قوله ﷻ: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ على سوءِ حالِ قُدار بن سالف الَّذي باشرَ عقْرَ النّاقة، أو سوءِ حالِ الجماعةِ الَّذين باشروا ذلك، حتَّى كأنَّهم انتدَبوا لهذا الفعلِ الشَّنيع أرذلَهم وأقبحَهُم فعلًا وصنيعًا.

سرُّ التَّعبير بالفاء في قوله: ﴿فَقَالَ﴾:

آيةُ النّاقةِ كانت بعد تكذيبِ ثمود

آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بالفاءِ في قوله ﷻ: ﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَىٰهَا﴾ دونَ غيرِها من حروفِ العطف؛ لأنَّها مع أداءِ وظيفةِ العطفِ لقوله: (قال) على ﴿كَذَّبَتۡ﴾، تُفيدُ التَّرتيبَ والتَّعقيبَ كما

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 760، والبقاعي، نظم الدرر: 22/ 81.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 490.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 164.

هو الغالبُ فيها، ويكونُ معنى الكلام: كذَّبوا رسولَ الله صالحًا ﷺ؛ فتحدّاهُم بآيةِ النّاقة، وحذَّرَهُم من التَّعرُّضِ لها بسوءٍ، ومِن مَنْعِهم شربَها في نَوْبتِها من السُّقيا، وهذا يقتضي أنَّ آية النّاقةِ أُرسِلَتْ لهم بعد أن كذَّبوا، وهو الشَّأنُ في آيات الرُّسل.

ويجوزُ أن تكون الفاءُ للتَّرتيب الذِّكْريِّ المجرَّد، وهي تفيدُ عَطْفَ مفصَّلٍ على مُجْمَل، فيكون المعنى: (كذَّبت ثمودُ بطَغواها؛ إذ انبعثَ أشقاها)، ثمَّ فصَّل ذلك بقوله: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾، والعقرُ عند انبعاثِ أشقاها، وعليه فلا ضرورة إلى اعتبارِ الظَّرف - وهو ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ - مقدَّمًا من تأخيرٍ[1].

ويجوزُ أن تكون للسَّببيَّة، والمعنى: فقال لهم ما قال بسبب الانبعاثِ أو التَّكذيبِ الَّذي دلَّ على قصدِهم لها بالأذى[2].

دلالةُ التَّعبير بفعل القولِ مادةً وصيغةً:

تحذيرُ الرَّسولِ لهم واقعٌ يقينًا

آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بالقول في قوله: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ صالحًا ﷺ وجَّه القولَ إليهم مباشرة، وهذا دليلٌ على بلاغِهِ لهم دون وساطةٍ ليُقيمَ الحُجَّة عليهم.

وعُبِّرَ بصيغة الماضي للدَّلالةِ على أنَّ تحذيرَهُ لهُم متحقِّقٌ واقعٌ، فلا عُذرَ لهُم في إقدامِهم على عَقرِ النّاقة.

دلالة اللّام في ﴿لَهُمْ﴾:

اللّامُ في قوله ﷻ: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا﴾ للتَّبليغ، والمرادُ أنَّه جعلَ القولَ منتهيًا إليهم، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّه لم يُقصِّر في تحذيرِهم وأداءِ ما كلَّفَهُ الله تعالى به.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 373 - 374.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 81.

دلالةُ الإضمار في قوله: ﴿لَهُمْ﴾:

التَّحذيرُ موجَّهٌ لـثـمـودَ أو لأشقاها

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبير بالإضمار دون الإظهار في قوله: ﴿لَهُمْ﴾ لتعدُّدِ المُراد بالضَّمير؛ فإنْ كانَ المُرادُ بـ ﴿أَشْقَىٰهَا﴾ جماعةً فعَودُ الضَّمير من ﴿لَهُمْ﴾ عليهم واضحٌ، وإنْ كان المرادُ به واحدًا بعَينه فالضَّميرُ من ﴿لَهُمْ﴾ يعودُ على ثمود[1]، ولا يتأتَّى ذلكَ من الإظهار.

علَّةُ جمعِ الضَّميرِ في ﴿لَهُمْ﴾ وما بعدَهُ:

أُعيدَتْ عليهم ضمائرُ الجمع في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ وما بعده باعتبارِ أنَّهُم جمعٌ، وإن كانت الضَّمائرُ قبله مُراعًى فيها أنَّ ثمودَ اسمُ قبيلة[2].

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿لَهُمْ﴾:

تـحـذيـرُ ثـمـودَ محلُّ العناية

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لَهُمْ﴾ على الفاعلِ ومَقولِ القولِ في قولهِ ﷻ: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾؛ للعنايةِ بتحذيرِهم وإيصالِ القولِ لهم، وللتَّشويقِ للمُؤَخَّر، ولأنَّ في الفاعلِ ومَقولِ القولِ نوعَ طولٍ، فربَّما يُخِلُّ تقديمُه بتجاوبِ أطرافِ النَّظم.

سرُّ التَّعبير عن صالح ﷺ بعنوان الرِّسالة:

عِـصـيـانُ ثـمـودَ مَن تجبُ عليهم طاعتُه

عُبِّر عن صالحٍ ﷺ في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ بعنوان الرِّسالة مضافًا إلى لفظِ الجلالة؛ إيذانًا بوجوب طاعته؛ لأنَّ هذا القولَ كان من عندِ الله وبأمرِه، وبيانًا لغايةِ عُتوِّهم وتماديهِم في الطُّغيان[3]؛ إذ لم يُبالوا بتحذيرِ مَن تجبُ عليهِم طاعتُه.

---

(1) السمين، الدر المصون: 11/ 24.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 374.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 164، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 362، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 299.

دلالةُ التَّعبير بالرَّسول دون النَّبيِّ:

عصمةُ الرُّسُلِ مِـن قـتـلِ أقوامِهم

عُبِّر بالرَّسول دون النَّبيِّ في قولِ الحقِّ جلَّ من قائلٍ: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا﴾؛ لأنَّ وظيفته الإبلاغُ والتَّحذيرُ الذي ذُكِرَ هنا[1]، فيكونُ أنسَبَ بالمقام. وفيه إشارةٌ أيضًا إلى حِفظِ الله لرُسلِه من القتلِ من أعدائهم.

سرُّ إيثارِ لفظِ الجَلالة دونَ غيرِه في ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾:

التَّنبيهُ على وجوبِ طاعةِ الرَّسولِ وتعظيمِه

أوثِرَ لفظُ الجلالةِ في قولِه تعالى شأنه: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾؛ للإشارةِ إلى زيادةِ تعظيمِ صالحٍ عليه السلام، والتَّنبيهِ على وجوبِ طاعتِه، أي: رسولُ المَلِكِ الَّذي لَهُ الأمرُ كلُّه؛ فتعظيمُهُ من تعظيمِ مُرسِلِه ﷻ[2].

بلاغةُ الحذفِ في ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾:

مسُّ النّاقةِ بالأذى عِلَّةُ سُرعةِ التَّعذيب

تظهَرُ بلاغةُ الحذفِ في إعرابِ قوله تعالى: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ فهو منصوبٌ على التَّحذير، أي: احذَروا ناقةَ الله - أي: عَقْرَها - فلا تقرَبوها، فالكلامُ من تعليقِ الحُكم بالذَّوات، والمرادُ أحوالُها[3]. وإضمارُ النّاصِبِ هنا واجبٌ لِمَكانِ العطف؛ فإنَّ إضمارَ النّاصِبِ يَجِبُ في ثلاثةِ مواضِع؛ هذا الموضعُ منها. ويَجوزُ أن يكونَ مَنصوبًا على تَقدير: ذَروا ناقةَ الله، كما في آيةِ سورةِ الأعراف، وفي حَذفِ العاملِ إشارةٌ إلى ضيقِ الحالِ عن ذِكرِه؛ لِعظيمِ الهَولِ وسُرعةِ التَّعذيبِ عندَ مَسِّها بالأذى[4].

سِرُّ إيثارِ لفظِ الجلالة وإضافةِ النّاقة إليه:

شرَفُ النّاقةِ وتعظيمُ قَدرِها

أُضيفَ لفظُ ﴿نَاقَةَ﴾ إلى اسمِ الجلالة في قولِه تبارك شأنه: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّها آيةٌ جعلها الله دليلًا على صِدقِ رسالةِ صالحٍ عليه السلام؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 81.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 81.
(3) السمين، الدر المصون: 11/ 24، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 374.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 81.

لأنَّ خُروجَها لهم كان خارِقًا للعادة[1]. وفي الإضافةِ أيضًا تشريفٌ لها، وبيانٌ أنَّ عَقْرَها من شِدَّةِ طُغيانهِم، فاستَحَقّوا بذلكَ العذابَ[2].

سـوءُ المصير مآلُ مَن انتهكَ حُرُماتِ الله

وإنَّما عُدِلَ إلى إظهارِ لفظِ الجَلالةِ في قولهِ عزَّ شأنُه: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ والظّاهر أن يُقال: (ناقته)؛ لزيادةِ التَّعظيم، أي: ناقةَ الملِك الأعظَم الَّذي له الجبروتُ كلُّه، فلا ينبغي أن يقتربَ أحدٌ من انتهاكِ حُرُماتِ اللّه، ولا أن يَتجَرَّأ أحدٌ على ما أضافَهُ إليه[3].

دلالة الواو في ﴿وَسُقۡيَٰهَا﴾:

حُرمة التَّعرُّض لـيـومِ سَـقْـيِ النّاقة

الواو في قوله ﷻ: ﴿وَسُقۡيَٰهَا﴾ للعطف، والسُّقيا: معطوفٌ على التَّحذيرِ المقدَّر، أي: احذَروا غَصْبَ سُقياها؛ فالكلامُ على حَذفِ مُضافٍ، أو أُطلِقَ لفظُ السُّقيا على الماءِ الَّذي تُسقى منه، إطلاقًا للمصدرِ على المفعول؛ فيرجِعُ إلى إضافةِ الحُكمِ إلى الذّات، والمُرادُ حالةٌ تُعرَفُ مِنَ المقام؛ فإنَّ مادَّةَ (سُقيا) تُؤذِنُ بأنَّ المُرادَ التَّحذيرُ من أن يَسقوا إبلَهُم من الماءِ الَّذي في يومِ نَوْبتِها[4].

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿وَسُقۡيَٰهَا﴾ دونَ شَرابِها:

تـحـذيـرُ ثـمـودَ من منعِ النّاقةِ نصيبَها من الماء

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالسُّقيا في قوله: ﴿وَسُقۡيَٰهَا﴾ دونَ الشُّرب؛ لأن السُّقيا: أن يُعطيَهُ ما يَشرَب[5]؛ لذلك عُبِّرَ بها هنا؛ لأنَّ المُرادَ أن يُعطوا النّاقةَ نصيبَها من الماء في اليوم المخصَّصِ لها، وتحذيرُهم من منعِ ذلك؛ بخِلافِ الشَّراب؛ فيُطلَقُ على ما يُتناوَلُ من كلِّ مائعٍ؛ ماءً كان أو غيرَهُ[6]، وعلى هذا فالشَّرابُ أعَمُّ من السُّقيا.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 374.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 299.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 81.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 374.
(5) الراغب، المفردات: (سقي).
(6) الراغب، المفردات: (شرب).

دلالة الإضافة في ﴿وَسُقۡيَٰهَا﴾:

أضافَ النَّظمُ الكريمُ لفظ (سُقيا) إلى ضمير النّاقة في قوله: ﴿وَسُقۡيَٰهَا﴾؛ لزيادة تأكيدِ النَّهي عن التَّعرُّضِ لنصيبِ النّاقةِ من الماء؛ فالإضافةُ تُشعِرُ باختصاصِ السُّقيا بها، وأنَّها لها لا لغيرها.

دلالةُ التَّعبير بالفاء في قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾:

وضعَت ثمودُ التَّكذيبَ موضعَ التَّصديق

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفاء في قوله ﷻ: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ دون غيرها من حروف العطف لتعدُّدِ معناها؛ فيجوزُ أن تكون للسَّببيَّة إذ الأمرُ المذكورُ سببٌ للتَّصديق، وهم قد جعلوه سببًا للتَّكذيب[1].

ويحتملُ أن تكون الفاءُ هي الفصيحةَ، أي: قال لهم ذلك، فكانت بعدَهُ بينَهُ وبينهم في أمرِها أمورٌ، فأوقعوا تكذيبَه فيها كلِّها[2].

دلالةُ مضيِّ الأفعالِ في الآية:

مصيرُ ثمود محلُّ تحذيرٍ وعِظةٍ وعِبرة

جيءَ بالأفعالِ على صيغةِ الماضي في قوله ﷻ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا﴾؛ للدَّلالة على تَحقُّقِها وحُصولِها كما هو شَأنُ حِكايةِ القَصَصِ والأحداثِ السّالِفَة، وفي ذلك مُلاءَمةٌ لِمَقامِ تَحذيرِ قُرَيشٍ من مثلِ مَصيرِ ثمودَ؛ لأنَّ حُكمَ اللّه جَرى بعِقابِ مَن يَعتَدي على آياتِهِ حتَّى يكونَ عِظَةً وعِبرَةً لِمَن بَعدَهُ.

سِرُّ حذفِ المكذَّبِ به في ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾:

عقابُ مَن يعتدي على آياتِ الله تعالى سنَّتُهُ الجارية

في قولِهِ ﷻ: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ إيجازٌ بحذفِ متعلّق التَّكذيب؛ لظُهورِهِ من السّياق، والمعنى: فكذَّبوهُ فيما حذَّرهُم منه؛ من حُلولِ العذابِ بهم إن تعرَّضوا لسُقيا النّاقة[3].

وفيهِ إشارةٌ إلى أنَّه ما كان يَنبغي لهم أن يُكذِّبوهُ في مِثلِ هذا

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 300.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 82.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 316، والقاسمي، محاسن التأويل: 9/ 483.

التَّحذير؛ لأنَّ سُنَّةَ الله جَرَتْ بعِقابِ مَن يَعتَدي على آياتِهِ، وما سَبَقَ من أحوالِ الأُمَمِ أكبرُ دليلٍ على ذلك.

دلالةُ تكرارِ ذِكرِ التَّكذيب في ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾:

التَّكذيبُ خُلُقٌ راسخٌ في ثمود

التَّكذيب المذكورُ في قوله ﷻ: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ تكذيبٌ ثانٍ، وهو تكذيبُهم بما اقتضاهُ التَّحذيرُ من الوَعيدِ والإنذارِ بالعذاب إن لم يَحذَروا الاعتداءَ على تلك النّاقة، وقد صُرِّحَ به في قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٣﴾ [الأعراف: 73]، وبهذا الاعتبار استقامَ التَّعبيرُ عن مقابلةِ التَّحذيرِ بالتَّكذيبِ مع أنَّ التَّحذيرَ إنشاء، فالتَّكذيبُ إنَّما يتوجَّه إلى ما في التَّحذير من الإنذار بالعذاب[1]. وفي تكرير ذِكرِ التَّكذيب إشارةٌ إلى أنَّ نفوسَهُم قد ضَرِيَتْ به، حتَّى صار خُلُقًا وطبعًا لها.

سِرُّ التَّعبير بالتَّكذيب:

أسندَ القرآنُ التَّكذيبَ إلى قوم ثمودَ في قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ مع أنَّهُم رَضوا بأن يكونَ لِلنّاقةِ شِرْبٌ ولَهُم شِرْبٌ، وقد يُفهَمُ من ذلك أنَّهُم ما كذَّبوا؛ لذلك أجابَ العُلَماءُ على ذلك بأنَّ المرادَ إقرارُهُم بتقسيمِ الشِّربِ بينهم وبينَ النّاقةِ من غيرِ تَصديقٍ إيمانيٍّ، أو أنَّ الكلامَ ليس على أصلِهِ في التَّرتيب، إنَّما أصلُهُ: (فعَقَروها فكَذَّبوهُ)، فيقعُ التَّكذيبُ أوَّلًا والعَقرُ بعدَهُ[2].

نُكتةُ إسنادِ التَّكذيب إلى جَميعِهم مع إيمانِ بعضِهم:

الدَّلالةُ على كثرةِ المكذِّبين وقلَّةِ المؤمنين

أُسنِدَ التَّكذيبُ إلى جَميعِهم معَ أنَّ منهُم مَن آمَنَ بصالح عليه السلام - كما دلَّ على ذلك آياتٌ في سوَرٍ أخرى - لأنَّ الكلامَ عن الَّذين استمَرّوا على تَكذيبِهم لهُ بعد مَجيئِه بالنّاقة، ويُمكنُ أن يُقالَ: إنَّهم بعد تَسليمِهِم بقِسمةِ الشَّرابِ بينهُم وبينَ النّاقة، أجمَعوا على مَنْعِها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 374.
(2) الفراء، معاني القرآن: 3/ 269.

الشِّرْبَ ورَضوا بقَتلِها، ولم يُبالوا بشدَّةِ التَّحذيرِ والوعيد، وهذا هو موطنُ العِظَة والعِبرةِ الَّتي أُريدَ أن تتَّعظَ بها قريش[1].

سِرُّ تقديمِ التَّكذيبِ على العَقر:

قُدِّمَ التَّكذيبُ على العَقر في قولِ الحقِّ جلَّ ذِكره: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾؛ لأنَّه هو الَّذي كان سببَ العَقر[2]، والسَّببُ سابقٌ على المسبَّب.

معنى الفاء في ﴿فَعَقَرُوهَا﴾:

تكذيبُ ثمودَ حملَها على عَقرِ النّاقة

الفاءُ في قولِه جلَّ مِن قائل: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ للسَّببيَّة، والمعنى: فعَقروها بسَبَبِ ذلكَ التَّكذيب[3]، ولو آمَنوا وصَدَّقوا ما أقدَموا على هذا الفعلِ الشَّنيع الَّذي كانت عاقبتُهُ هلاكَهم ودمارَهم. ويجوزُ أن تكونَ الفاءُ لترتيبِ العَقرِ على التَّكذيب، وبذلك يكونُ المُرادُ منها التَّعقيب؛ لأنَّ بينَ العَقر وحُلولِ العَذابِ ثلاثةَ أيام[4].

سرُّ التَّعبيرِ بالعَقر دونَ الذَّبْح:

تكذيبُ ثمودَ كان قبلَ عَقرِ النّاقة

عُبِّرَ بالعَقرِ في قوله: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ دونَ الذَّبحِ؛ لوجودِ فرقٍ بينَهُما؛ فالذَّبحُ شَقُّ حَلْقِ الحَيواناتِ على العُموم، أمّا العَقْرُ؛ فهوَ جَرْحُ البَعيرِ في يدَيْهِ ليبرَكَ على الأرضِ من الألمِ فيُنْحَرَ في لُبِّه، وبذلك يكونُ العَقْرُ أخَصَّ من الذَّبحِ؛ لأنَّه خاصٌّ بالبَعير.

وجهُ إسنادِ العَقر للجميع والفاعلُ واحدٌ منهُم:

رضا ثمودَ بعَقرِ النّاقةِ وتحريضُها عليه

أسنَدَ القُرآنُ الكريمُ عَقرَ النّاقةِ إلى الجماعةِ في قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ مع أنَّ الفاعلَ واحدٌ، وهو قدار بن سالف، ومعَ ذلك أُضيفَ الفِعلُ إلى الكلِّ؛ لأنَّهم رضوا بفِعلِه، وحرَّضوهُ عليه، وقد ذُكِرَ

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان 24/ 460.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 488.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 82.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 300.

أنَّه لم يَعقِرْها حتَّى تابَعَهُ صَغيرُهُم وكَبيرُهم، ذَكَرُهُم وأُنثاهم[1]؛ قال تعالى: ﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ [القمر: 29][2].

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَدَمْدَمَ﴾:

الفاء في قول الحقِّ ﷻ: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾ للسَّببيَّة؛ فعَقرُهُم للنّاقة كان سببَ هلاكِهم، وقد كان بين العَقرِ وبين حُلولِ العذاب بهِم ثلاثةُ أيّام، فلا تضرُّ دلالةُ الفاء على التَّعقيب[3].

سرُّ التَّعبير بالدَّمدَمَة:

عبَّر القرآنُ الكريم بالدَّمْدَمَة دونَ الهلاكِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾؛ لأنَّ لفظَ الدَّمدَمَةِ يَحملُ معانيَ زائِدَةً على الهَلاكِ؛ فتُطلقُ على ترديدِ الحالِ المُستَكْرَهَة، وعلى التَّدْميرِ والهَلاكِ، وإطباقِ العذابِ عليهم؛ يُقالُ: دَمْدَمْتُ على الشَّيءِ إذا أطبَقتَ عليه، وعلى هذا يكونُ المُرادُ أنَّه ﷻ أهلكَهُم هَلاكَ استئصالٍ[4] ولم يُبقِ منهم أحدًا.

إهـلاكُ ثـمـودَ هلاكُ استئصال

الدلالة الصوتية لقوله: (دمدم):

الفعلُ (دمدم) فعلٌ انفردَت به سورةُ الشَّمس، ولم يَرِدْ في غيرِها في سورِ القرآن، وقيل أصلُه: (دمّ) فضُعِّفَ (دَمْدَم)، والمرادُ بها حكايةُ صوتِ الهَدَّة، ومِنهُ (دَمْدَمَ فُلانٌ في كلامِه)، وتُطلَقُ على صوتِ الصّاعقةِ والرَّجفةِ الَّتي أُهلِكوا بها، أي: صاحَ عليهم ربُّهم صيحةَ غَضَبٍ، إلى غيرِ ذلك من المَعاني الَّتي تحتملُها هذهِ اللَّفظة، ولا سيَّما أنَّ الدَّلالةَ الصَّوتيَّة فيها تتناسبُ مع معنى إرجافِ الأرضِ بهم، والمُرادُ تحريكُها بشِدَّةٍ عليهم؛ فكأنَّ كُلَّ مَقطعٍ في الكلمةِ يُصوِّرُ حركةَ الأرضِ وهيَ ترتجفُ بهِم، وهذا مناسبٌ لطبيعةِ بُنيانِ قومِ صالح، فكانوا يَنحِتونَ من الجِبالِ

التَّعبيرُ بـ(دَمْدَم) بـصـوتـه لـيَـدُلَّ على المُبالغةِ في العذاب

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 179، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 79.
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 649.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 300.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 649.

بيوتًا، ويظنّونَ أنَّها تَحميهِم من العذابِ لِصَلابةِ الجِبالِ وقوَّةِ حَصانَتِها؛ فجاءَ التَّعبيرُ بـ (دَمْدَم) بصوتِه ليَدُلَّ على المُبالغةِ في العذاب.

بلاغةُ المجاز في إسنادِ الدَّمدَمةِ إلى الله:

أسندَ التَّعبيرُ القرآنيُّ الدَّمدَمَة إلى اللّه في قوله: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾ من باب المجاز العقليِّ؛ لأنَّ اللّه هو خالقُ الصَّيحةِ وكيفيّاتِها[1]. أو المعنى: أطبقَ عليهم الأرضَ، أو سوّاها عليهم؛ بأن أهلكَهُم فجَعلَهم تحتَ التراب[2].

دلالةُ التَّعبير بحرفِ الاستعلاء:

التَّعبيرُ بأداةِ الاستعلاء (على) في قوله جلَّ من قائلٍ: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ﴾؛ يدلُّ على شدَّةِ العذاب وإحاطتِه بهم من كلِّ ناحية؛ فلا يجدونَ مفرًّا ولا مَهْرَبًا، ويكونُ المرادُ أنَّ اللّه عذَّبَهُم عذابًا شديدًا أحاطَ بهم واستأصَلَهُم.

إحاطةُ العذابِ الشَّديدِ بثمودَ من كلِّ جانب

دلالة تقديم ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

تقديمُ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على الفاعل في قولِه تعالى شأنه: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ﴾؛ للعناية بكونِ العذابِ محيطًا بهم، والمسارعةُ في الإخبارِ بهِ لأخذِ العِظةِ والعِبرَةِ، والتَّشويقِ للمُؤَخَّر.

وقـوعُ العـذابِ على ثمودَ محلُّ العِظةِ والعِبرة

سِرُّ التَّعبيرِ بعنوانِ الرُّبوبيَّة مضافًا إلى ضميرهم:

التَّعبيرُ بعنوانِ الرُّبوبيَّة مضافًا إلى ضميرهم في قولهِ ﷻ: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ﴾؛ للتَّنبيهِ على شدَّةِ العذابِ لشدَّةِ الغضب، وذلك بذكرِ صفةِ الإحسانِ الَّتي كفَروها؛ لأنَّه لا أشدَّ غضبًا ممَّن كُفِرَ إحسانُه، والمعنى: فدَمدَمَ عليهم الَّذي أحسَنَ إليهم، فغرَّهُم إحسانُه، فقطعَه عنهُم، فعادوا كأمْسِ الدّابرِ[3].

كُـفـرُ الإحـسـانِ موجِبٌ لقَطْعِهِ وشدَّة الانتقام

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 375.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 179 - 180.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 82 - 83.

دلالةُ الباء في ﴿بِذَنۢبِهِمۡ﴾:

الـذُّنـوبُ سببُ الهلاكِ والعذاب

الباءُ في قولِه جلَّ شأنه: ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ﴾ للسَّببيَّة، والمعنى: فدَمدَمَ عليهم ربُّهم بسبب ذنبهم[1]، وفي هذا تحذيرٌ شديدٌ لكُفّار قريش الَّذين يُقارفون الذُّنوب، ويُعادون أهل الحقِّ؛ لأنَّ سنَّة اللّه تعالى في إهلاكِ الظّالمين واحدة.

سرُّ التَّصريح بالذَّنب مع دلالة الفاء عليه:

ذِكـــرُ عـاقـبـةِ الذَّنب عِبْرةٌ لكلِّ مذنب

صرَّح القرآنُ الكريمُ بسببيَّة الذَّنب للدَّمدَمة في قوله ﷻ: ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ﴾ - مع دلالة الفاء على ذلك - للإنذار بعاقبة الذَّنب؛ ليَعتبرَ به كلُّ مذنب[2]، ولتبشيعِ صورةِ الذَّنب؛ فلا يُقدِم أحدٌ على فِعل مثلِ هذا الذَّنب لشدَّة العقوبة المُترتِّبة عليه.

سِرُّ التَّعبير بالذَّنب دون العَقْر:

تـبـشـيـعُ فِـعـلِ عَقرِ النّاقة لأخذِ العِظة والاعتبار

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ عن عَقرِ قومِ صالحٍ للنّاقة بالذَّنب في قوله تعالى: ﴿بِذَنۢبِهِمۡ﴾ للإشارة إلى التَّعميم[3]، وأنَّ كلَّ ذنبٍ من ذُنوبهم له مدخلٌ في هلاكهم واستئصالهم، ويَدخُل في ذلك عَقرُهم النّاقة دخولًا أوَّليًّا، وجاء بالإفراد ﴿بِذَنۢبِهِمۡ﴾؛ لأنَّه مصدر، والمصدرُ يدلُّ على المفرد والمثنى والجمع.

نكتة الإضافة في ﴿بِذَنۢبِهِمۡ﴾:

هلاكُ ثمودَ بما صنعَتْ يداها

دلَّتِ الإضافةُ في قولِ الحقِّ جلَّ ذِكرُه: ﴿بِذَنۢبِهِمۡ﴾ على أنَّ هلاكَهُم بذَنبهم لا بذنبِ لغيرهم، وفي ذلك مزيدُ بيانٍ لاستحقاقِهم العذابَ، وأنَّه تعالى لا يظلمُ أحدًا، والمعنى: أهلكَهُم وأطبقَ عليهم العذابَ بذنبهم الَّذي هو الكفرُ والتَّكذيبُ والعَقْرُ[4].

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 316.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 165.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 20/ 300.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 20/ 79.

دلالةُ الفاء في ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾:

تفريعُ التَّسوية على الدَّمدَمة

الفاءُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ لتفريعِ التَّسوية على الدَّمدَمة[1]، وبيانٍ أنَّها ناتجة عنها، وأثرٌ من آثارها؛ لأنَّه لمّا تمادَى قومُ ثمودَ في الظُّلم والكُفر بسببِ عَقرِ النّاقةِ من بعضِهم ورِضا بعضِهم، قال مُسبِّبًا عن ذلك ومُعقِّبًا ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾[2].

مرجع الهاء في ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾:

الدَّمدَمَةُ شاملةٌ لكُفّار ثمود

الضَّميرُ المنصوب في قولهِ ﷻ: ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ يجوزُ عَوْدُه على ثمود باعتبار القبيلة، كما أعادَهُ في قوله: ﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾، ويشملُ أبنيَتَهُم؛ أي: سوَّى أبنيَتَهُم بهَدمِها وإخرابها ويجوزُ عَوْدُه على الدَّمدَمَة والعقوبة، أي: سوّاها عليهم جميعًا، فلم يُفلِتْ منهم أحدٌ[3].

ومَن فسَّروا (دمدم) بمعنى: أطبقَ عليهم الأرضَ؛ قالوا: معنى (سوّاها): جعل الأرضَ مستويةً عليهم، لا تظهَرُ فيها أجسادُهم ولا بلادُهم، وجعلوا ضميرَ المؤنَّث عائدًا إلى الأرض المفهومة من فعلِ (دمدمَ)، فيكون كقوله تعالى: ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [النساء: 42][4].

بلاغةُ التَّعبير بالتَّسوية في ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾:

عذابُ ثمودَ عامٌّ فظيعٌ مُطبِقٌ عليهم

إنْ فُسِّرت الدَّمدمة بالإطباق والعُموم؛ كان معنى ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾: فسوَّى الدَّمدمةَ عليهم، وعمَّهُم بها، وذلك أنَّ هلاكهم كان بصيحةِ جبريل عليه السلام، وتلك الصَّيحةُ أهلكتْهُم جميعًا، فاستوَتْ على صَغيرِهم وكبيرِهم، وإنْ فُسِّرت بالتَّسوية، كان المراد: فسوَّى عليهم الأرض[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 375.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 8/ 443.
(3) السمين، الدر المصون: 11/ 25.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 375.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 31/ 179 - 180.

براعةُ الجِناس في ذِكر التَّسوية:

بين قوله ﷻ هنا: ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ وقوله قبله: ﴿وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ محسِّنُ الجناس التّامِّ[1]. وفيه أيضًا إيهامُ الطِّباق بالإثباتِ والنَّفي.

توجيه القراءات في ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾:

في هلاكِ ثمودَ رَدعٌ لأمثالِهم من المشركين

قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر: ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ بالفاء، وقرأ الباقون ﴿وَلَا يَخَافُ﴾ بالواو[2]؛ فوجهُ مَن قرأ بالفاء أنَّها للعطف والتَّعقيب[3]، وفيها معنى التَّفريع على ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾. ومعنى التَّفريع: تفريعُ العِلم بانتفاء خوفِ اللّه منهم مع قوَّتهم؛ ليَرتدعَ بهذا العِلم أمثالُهم من المشركين[4]، قال الداني: "وفي الشمس في مصاحف أهل المدينة والشام: ﴿فَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ بالفاء، وفي سائر المصاحف: ﴿وَلَا يَخَافُ﴾ بالواو"[5].

ووجهُ مَن قرأ ﴿وَلَا يَخَافُ﴾ بالواو أنَّها للحال، أي: والحال أنَّه لا يخافُ عُقباها، أو للاستئناف[6].

مرجعُ ضمير الفاعل في ﴿وَلَا يَخَافُ﴾:

اللـه تعـالى لا يَـخـافُ عاقبة هلاكِ ثمود

تعدَّدَتِ الأقوالُ في مرجع ضميرِ الفاعلِ في قوله: ﴿وَلَا يَخَافُ﴾؛ فيحتملُ أنَّه يعودُ على الرَّبِّ؛ لكونهِ أقربَ مذكور، والمعنى: ولا يخافُ ﷻ عاقبةَ هلاكِهم؛ فهو القويُّ المتينُ الَّذي لا يُغالَب، وهو الأظهَر.

ويحتملُ أن يعودَ على ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾، أي: ولا يخافُ عُقبَى هذه العقوبة؛ لإنذارِه إيّاهم.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 375.
(2) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 401.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 316، والسّمين، الدر المصون: 11/ 25.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 375.
(5) الداني، المقنع: ص 112.
(6) السمين، الدر المصون: 11/ 25، وابن أبي مريم، الموضح في وجوه القراءات وعللها: 3/ 1377.

ويحتملُ أن يعودَ على ﴿أَشْقَىٰهَا﴾، أي: انبعثَ لعَقرِها والحالُ أنَّه غيرُ خائفٍ عاقبةَ هذه الفَعْلةِ الشَّنعاء[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾، استعارةٌ تمثيليَّةٌ لإهانتهم، وبيانِ أنَّهم أذِلَّاءُ عند الله[2]. والمُرادُ: أنَّهُ بالَغَ في عذابِهم إلى غايةٍ ليسَ فوقها غايةٌ؛ فإنَّ مَن يَخافُ العاقِبَةَ لا يُبالِغُ في الفعل، أمّا الَّذي لا يَخافُ العاقِبَةَ ولا تَبِعَةَ العَمَلِ فإنَّهُ يُبالِغُ فيه؛ ليَصِلَ إلى ما يُريد، ولمّا كانَ الأمرُ صادِرًا مِنَ اللّه؛ فهو لا يَخشى تَبِعَةَ إهلاكِهم؛ لأنَّهُ العزيزُ الَّذي لا يُغالَبُ، أو لا يَخافُ عاقِبَتَها كما يَخافُ المُلوكُ عاقِبَةَ ما يَفعلونَهُ.

ملكُ المُلوك لا يخافُ عاقبة هلاكهم واستئصالِهم

بلاغةُ الكنايةِ في قوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾:

تظهَرُ بلاغةُ الكناية في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ في إبرازِ عظمَتِهِ سبحانه في تمكُّنِ سُلطانِهِ من عِقابِ المُشركين؛ لأنَّه لمّا كانَ المذكور فيما سبَق عِقابًا وغلَبةً، وكان العُرفُ أنَّ المغلوبَ يُكِنُّ في نفسه الأخذَ بالثَّأر من غالِبِه، فلا يَهدأ له بالٌ حتَّى يَثأر لنفسه، فكان الَّذي يَغلبُ غيرَهُ يتَّقي؛ حذرًا من أن يتمكَّن مغلوبُه من الثَّأر؛ أخبرَ اللّه سبحانه أنَّه الغالبُ الَّذي لا يقدرُ مَغلوبُه على أخذِ الثَّأر منه، وهذا كنايةٌ عن تمكُّنِ اللّه من عقابِ المشركين، وأنَّ تأخيرَ العذاب عنهم إمهالٌ لهم، وليس عن عجزٍ؛ فجملةُ ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ تذييلٌ للكلام، وإيذانٌ بالختام.

عقابُ اللّه للمُشركين واستئصالُه لهُم لا يَردُّه أحد

ويجوزُ أن يكونَ قوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ تمثيلًا لحالهم في الاستئصال بحالِ مَن لم يترك مَن يثأرُ له، فيكون المَثَل كنايةً عن هلاكهم عن بَكْرةِ أبيهم، لم يَبقَ منهم أحد[3].

(1) السمين، الدر المصون: 11/ 25.

(2) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 366، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 363، والقاسمي، محاسن التأويل: 9/ 483.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 375.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع المنفيِّ في ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾:

الله تعالى متنزِّهٌ عن الخوفِ على الدَّوام

جاءَ التَّعبيرُ بالمضارع المنفيِّ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾؛ للدَّلالة على استمرارِ انتفاءِ الخوف، والمعنى: لا يخافُ في وقتٍ من الأوقات[1]؛ لأنَّه لم يَظلمْهُم فيُخيفَه الحقُّ، وليس هو بالضَّعيف حتَّى يَنالَهُ منهم مكروهٌ، تعالى عن ذلك عُلوًّا كبيرًا[2].

مرجعُ الهاء في ﴿عُقْبَٰهَا﴾:

إهلاكُ ثمودَ مأمونُ العواقب عند الله

الهاءُ في قوله تعالى شأنه: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ للدَّمدَمَة، أي: ولا يَخافُ اللّه عاقبةُ الدَّمدَمَة[3]، أو للفَعْلَةِ الَّتي هي إهلاكُ ثمود، أي: ولا يخافُ عاقبة هذه الفَعْلة[4].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالعُقبى:

اللـه تعالى متَّصفٌ بالعظَمة والجلالِ والكبرياء

عبَّر بالعُقبى في قوله ﷻ: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾؛ لدلالتها على خاتمةِ الشَّيء وما يجيءُ من الأمور بعَقِبه[5]، سواء كان ذلك عِقابًا لفاعلهِ أو مثوبةً[6]، فيفيدُ اختيارُ هذا اللَّفظِ هنا أنَّه ﷻ لا يَخشى العقابَ أو الانتقامَ أو الثَّأر؛ لإهلاكِه ثمود، وفي ذلك ما لا يَخفى من التَّنصيص على العظَمة والجلال والكِبْرياء.

سرُّ رجوعِ آخرِ السّورةِ على أوَّلها:

صاحبُ التَّدبيرِ الحكيم لا يَخافُ العواقبَ

لمّا أفادَ قولُه ﷻ: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ أنَّه تعالى هو المِلكُ الأعلى الَّذي كلُّ شيءٍ في قبضَتِه؛ عُلم أنَّه ﷻ يُعلي أولياءه؛ لأنَّهم على الحقِّ، ويُسفِّلُ أعداءَهُ؛ لأنَّهم على الباطل، فلا يَضِلُّ بعد ذلك إلّا هالكٌ؛ بصيرتُه أشدُّ ظلامًا من اللَّيل الحالك، وقد رجع آخِرُ السّورة على أوَّلِها بالقسَمِ وجَوابه المحذوف الَّذي هو طبعُ النُّفوسِ على طبائعَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 84.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 30/ 171.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 316.
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 649.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 490.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 375.

مختلفةٍ، والتَّقدُّمِ إليهم بالإنذار من الهلاك، ونفسِ القسَم أيضًا؛ فإنَّ مَن له هذه الأفعالُ الهائلةُ وهذا التَّدبيرُ المُحكَمُ؛ هو بحيثُ لا يُعجِزُهُ أمرٌ، ولا يخشَى عاقبةً[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخوف والخشية:

لا يلحقُ اللهَ تعالى مكروهٌ بإهلاكِهِ ثمودَ

الخوفُ: توقُّعُ مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونةٍ أو معلومةٍ، ويُضادُّ الخوفَ الأمْنُ، ويُستعمَلُ في الأمورِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ، قالَ سبحانَهُ: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: 57]، وقالَ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [النساء: 3][2]، ويُطلَقُ الخوفُ على أثَرِهِ؛ وهو السَّعيُ في مَرْضاةِ المَخوفِ منهُ، وامتثالِ أوامرِهِ؛ كقولِهِ جلَّ وتبارَكَ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ [آل عمران: 175][3].

وأمّا الخشيةُ فهي خوفٌ يشوبُه تعظيمٌ، وأكثرُ ما يكونُ ذلكَ عن علمٍ بما يُخشى منهُ، ولذلكَ خُصَّ بها العُلَماءُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: 28][4]. وقد أوثِرَ الخوفُ هنا؛ للدَّلالةِ على أنَّه تعالى لا يَلحَقهُ مكروهٌ بسببِ إهلاكِه ثمودَ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 84.
(2) الراغب، المفردات: (خوف).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/ 409.
(4) الراغب، المفردات: (خشي).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والستون،
سورة الأعْلى من الآية 06 إلى سورة العَلَق
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والستون، سورة الأعْلى من الآية 06 إلى سورة العَلَق
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 67 ، 810 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-646-69-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 67 : المجلد السابع والستون، سورة الأعْلى من الآية 06 إلى سورة العَلَق.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-646-69-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4934554 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"